سورية في عصر فولنه

منذ نون وربع قرن زار مصر والشام عالم فرنسوي مشهور وهو الكونت فولنه وتعلَّم العربيَّة وبحث في احوال البلاد الطبيعيَّة والاجتماعيَّة والَّف في ذلك كتاباً مشهوراً طُبع بالفرنسوية والانكليزية سنة ١٧٨٧ ذكر فيهِ اموراً كثيرة قلما تخطر على بال كاتب شرقي ولكنها ضرورية لمعرفة احوال البلاد في ذلك العصر . مثال ذلك انهُ وصف اول مطبعة انشئت في جبل لبنان فقال ما خلاصتهُ : — انشأ اليسوعيين مطبعة في حلب في بداءة القرن الثامن عشر واتفق لشاب اسمهُ عبدالله زاخر ان قرأ العربيَّة على اربابها وتعلم فن الطباعة واتى جبل لبنان ونزل في دير مار حنا الشوير وانشأ فيهِ مطبعة وصنع حروفها بيديهِ وطبع بها المزامير وكان ذلك سنة ١٧٣٣ فراجت نسخهُ جدًّا في جبل لبنان فكرر طبعهُ مراراً وصحح كتباً كثيرة من الكتب التي ترجمها اليسوعيون وطبعها وقد طبع حتى الآن (اي حتى عصر فولنه) ثلاثة عشر كتاباً وهي ميزان الزمان للاب نيرمبرج اليسوعي واباطيل العالم لديداكو ستلاَّ اليسوعي ومرشد الخاطي لالويس غرفايد اليسوعي ومرشد الكاهن ومرشد المسيحي وقوت النفس وتأمُّل الاسبوع والتعليم المسيحي وتفسير مزامير التوبة السبعة والمزامير والنبوات والانجيل والرسائل والسواعية . وكان يصنع الامهات بيدهِ ويصبُّ الحروف ويجمعها

وتوفي عبدالله زاخر سنة ١٧٥٥ وخلفهُ تلامذتهُ ولكن شأن المطبعة كان قد انحطَّ لما رآها فولنه . والظاهر ان فولنه لم يكن يعلم ان مطبعة الشوير قديمة وان المزامير طبع فيها سنة ١٦١٠ اي بعد اختراع الطباعة بزمن يسير وتستغرب كيف انهُ لم يعلم ذلك من رهبان ذلك الدير مع انهُ اقام فيهِ زماناً طويلاً ووصف مكتبة ذلك الدير وقال انهُ كان فيها من كتب الخط المسيحيَّة ما يأتي

(١) تقليد المسيحي (٢) بستان الرهبان (٣) علم النيَّة (لبوزمباوم) (٤) مواعظ سيناروي (٥) لاهوت مارتوما (٦) مواعظ فم الذهب (٧) قواعد النواميس (لكلاودتريتو) (٨) مجادلات الاباجورجي (٩) المنطق (١٠) نور الالباب (١١) المطالب والمباحث (للطران جرمانوس فرحات ؟ (١٢) ديوان جرمانوس (١٣) ديوان الخوري نقولا اخي عبدالله زاخر (١٤) مختصر القاموس

ومن كتب الخط الاسلامية ما يأتي : —

(١) القرآن (٢) قاموس الفيروزابادي (٣) الفية ابن مالك (٤) تفسير الالفية (٥) الاجرومية (٦) علم البيان للتفتزاني (٧) مقامات الحريري (٨) ديوان ابن الفارض (٩) فقه اللغة (١٠) طب ابن سينا (١١) مفردات ابن البيطار (١٢) دواة الاطباء ؟ (١٣) عبارات المتكلمين (١٤) نديم الوحيد (١٥) تاريخ اليهود (لبوسيقوس) (١٦) الهيئة على طريقة بطليموس

ثم قال ولم يكن في بلاد الشام حينئذٍ غير هذه المكتبة ومكتبة الجزار . ولا بدَّ من انهُ اخطأ في حكمهِ هذا لانهُ كان في دمشق اكثر من مكتبة . ولما انشئت مدرسة عبيه والجمعيَّة السورية لم يتعذَّر عليهما ان تجمعا كتبًا كثيرة من الكتب الخطيَّة من انحاء سورية ولما الَّف الامير حيدر تاريخهُ كان في مكتبتهِ كثير من كتب التاريخ كاخبار الدول لابن العبري وتاريخ صاحب صور وتاريخ ابن سباط ومروج الذهب وتاريخ البيعة

ولقد كانت اديرة الرهبان ملاجئ للاسفار العلميَّة من قديم الزمان ولو جهل الرهبان ما فيها في غالب الاحيان ولكن قلما يخطر على البال انهُ كان في دير من اديرة لبنان مثل قاموس الفيروزابادي والفيَّة ابن مالك ومقامات الحريري وديوان ابن الفارض ومفردات ابن البيطار ونحو ذلك من كتب اللغة والعلم والادب

هذا ويظهر من رحلة فولنه ان خيرات البلاد الزراعية كانت وافرة جدًّا رغمًا عن فساد الاحكام . قال ما خلاصتهُ غادرت طرابلس في شهر تبراير (شباط) وكانت الاشجار قد ازهرت والخضر قد اينعت فلما بلغت عين طورا رأيت النباتات في بداءة ظهورها ولما وصلت الى دير مار حنا الشرير رأيت الشجر يعلي الارض ولم يكشف عن جبل صنين الاَّ في اواخر ابريل مع ان الورد كان قد تفتح في الوادي الذي تحتهُ . وكل الاقاليم الحارة والمعتدلة والباردة مجموعة في تلك البلاد النطيسة وفي ساعة واحدة ينتقل المرء من اقليم الى اقليم . ومما يزيد في نزهة البلاد ومزاياها تنوُّع حاصلاتها . ولو استخدمت الصناعة لمساعدة الطبيعة لانتجت تلك البلاد كل حاصلات المسكونة في ما لا يزيد اتساعهُ على عشرين غلوة . والآن رغمًا عن فساد الاحكام وظلم الولاة تتدهل من تنوُّع خيرات البلاد فانها كلها تنتج القمح والمرطان والشعير والفول والقطن ويخلص بعضها ببعض المزروعات ففي فلسطين يجود السمسم الذي يستخرج منهُ زيت الشيرج والدخن وهو مثل دخن مصر . وتجود الذرة في سهل بعلبك والارز في سواحل الحولة وقد شرع الاهلون يزرعون قصب السكر بكثرة في سواحل صيداء وبيروت فوجدوهُ مثل قصب وادي النيل . ونبت نبات النيل من غير زرع على ضفاف الاردن في بلاد بيسان ولا يحتاج الاَّ الى قليل من العناية ليجود نوعهُ . ويزرع في آكام اللاذقية كثير

من التبغ وهو اكبر اصناف التجارة بين سورية ودمياط والقاهرة وقد انتشرت زراعتهُ في كل جبال سورية . اما من جهة الاشجار في البلاد شجر الزيتون ولاسيما في انطاكية والرملة . وعلى شجر التوت تتوقف ثروة بلاد الدروز بما يربى عليهِ من دود الحرير وحريرهُ من اجود ما يكون والكروم قائمة على المسامير او متعرشة على شجر السنديان ويخرج من عنبها خمر بيضاء وحمراء تزربان يخمر بوردو . وكان في جنائن يافا شجرتان من اشجار القطن الهندي . وفي مشهورة بليمونها وقد رأيت واحدة من ليمون الكباد ثقلها ثمانية ارطال . وبطيخ يافا يفضَّل على بطيخ البرلس . وتمر غزة مثل تمر مكة ورمانها مثل رمان الجزائر وبرتقال طرابلس مثل برتقال مالطة وتين بيروت مثل تين مرسيلية وموزها لا يقلُّ عن موز سنت دومنغو وتمتاز حلب بشجر الفستق وتفتخر دمشق بكل الاثمار التي تمتاز بها فرنسا وحقَّ لها الافتخار فتفاحها مثل تفاح نورمندي وخوخها مثل خوخ تورين ودراقنها مثل دراقن باريس وفيها عشرون صنفاً من المشمش . وبشواطئ سورية الصيد الذي يربى عليهِ دود القرمز وقرمزها على غاية الجودة مثل قرمز المكسيك وسنت دومنغو واذا اعتبرنا ان جبال اليمن التي تنبت اجود انواع البن في امتداد من جبال سورية وان تربة البلادين واحدة واقليمها يكاد يكون واحداً حكمنا انهُ يمكن زرع البن في سورية . وبلاد ممتازة هذا الامتياز في اقليمها وجودة تربتها لا يستغرب حسبانها دائماً اطيب بلاد الله بقعة وقد عدها اليونان والرومان من اجمل بلدانهم كلها وقالوا انها ليست دون القطر المصري

وفي البلاد كل الحيوانات الاهلية المعروفة في اوربا وفيها ايضاً الجاموس والجمل ومن الحيوانات البرية الغزال والخنزير البري ولكنهُ اصغر من خنزيرنا البري واقل منهُ شراسة وفيها قليل من الذئاب والثعالب وكثير من بنات آوى وهي التي يسميها اهالي مصر ذئاباً . وفي بعض جهاتها الضبع والنمر ولكن ليس فيها اسود وتكثر فيها الطيور المائية والارانب والحجال

والتفت الى احوال الزراعة في الايالات السورية ايالة ايالة او لواء لواء فقال في الكلام على ايالة حلب ان فيها مهلين وسيعين سهل انطاكية الى الغرب وسهل حلب الى الشرق والارض شديدة الخصب لا يكاد المطر يقع فيها حتى تنبت نباتاً طيباً يدل على خصبها ولكن اكثرها بور لا يزرع الآن وقلما يوجد اثر للاعتناء بالزراعة حول المدن والقرى واكثر غلاتها القمح والشعير والقطن ويزرع في جبالها الكرم والتين والزيتون . ويزرع التبغ في جوانب اكامها المطلة على البحر ويكثر الفستق في عمل حلب

ويلتزم ايالة حلب محصل من الالتزامة بثلثمئة كيس (اكثر من اربعين الف جنيه) في السنة

يضاف الى ذلك البابوجية وهي نحو خمسة آلاف جنيه تقدَّم هدية الى الصدر الاعظم وحاشيته. ويبلغ ايراد الملتزم نحو ستين الف جنيه . ويُعطى الوالي ٨٣٣٠ جنيهاً في السنة لنفقات الولاية لكنهُ ينتزع اموالاً طائلة من الاكراد والتركمان وسائر السكان . ولقد جمع منهم عابدي باشا الذي كان والياً قبل عهد قولته ١٦٠ الف جنيه في سنة واحدة وضرب ضريبة على كل احد وكل صناعة . واسهب قولته في وصف الحكام والجنود في ذلك العهد وقد نعود الى ذلك في فرصة اخرى

ثم قال وحلب تجارة واسعة مع بلاد الارمن وديار بكر وبغداد وبلاد فارس والهند ودمشق ومكة ومصر واوربا ويصدر منها القطن والفستق والمنسوجات الكتانية والحريرية والنحاس والبُرص والمرعزّى والمقص ويضائع الهند كالشيلان والموصلين ويأتيها من اوربا المنسوجات القطنية والقرمز والنيل والسكر والبن الاميركي . ويقدر عدد سكانها بمئتي الف نفس . ولكني ارجح ان عدد سكانها لا يزيد على مئة الف نفس لان مساحتها ليست اكبر من مساحة برمنجهام واكثر بيوتها طبقة واحدة

وايالة طرابلس تمتد من اللاذقية الى نهر الكلب وساحلها سهل فسيح تجري فيه نهيرات كثيرة تزيدهُ خصباً ولكنهُ اقل زراعة من الجبال التي فوقهُ . ومن غلاتهِ الذرة والشعير والقطن . وفي جهات اللاذقية يزرع التبغ والزيتون بنوع خاص واما في جبل لبنان وكسروان فاكثر الاعتماد على التوت والكرم

ولوالي طرابلس التزام البلاد كلها فهو يجبي اموالها ويدير امورها ويدفع للدولة ٣٩ الف جنيه كل سنة وعليهِ ان يقدّم لركب الحج كل سنة ما يلزم لهُ من حنطة وشعير وارز وما اشبه ويبلغ ثمن ذلك نحو ٣٩ الف جنيه اخرى . وعليهِ ان يشيع الركب بنفسهِ كل سنة ويلاقيهُ . وعندهُ نحو خمس مئة من الفرسان وبعض المشاة من المغاربة . وقد سلم بلاد كسروان للامير يوسف وضرب عليهِ ١٥٥٠ جنيهاً في السنة

ولطرابلس جنائن غضاء يزرع فيها التوت لتربية دود الحرير ويكثر فيها الرمان والبرتقال والليمون الّا انّ توتها قديم جذوعهُ مخورة وحريرهُ خشن غير جيد واذا سئل احد لماذا لا تزرعون توتاً جديداً اجابك ان من يزرع توتة يقول الباشا انهُ ذو مال فيغرمهُ واذا انكر امر بجلدهِ واذا اعترف راغ عليهِ بالضرب الى ان يعطي كل ما يملكهُ . مع انّ اهالي طرابلس اباة ضيم وقد عصوا على واليهم منذ عشر سنوات او اثنتي عشرة سنة وطردوهُ من مدينتهم وظلوا ثمانية اشهر من غير والٍ فارسل اليهم الباب العالي رجلاً خبيراً بطرق الخداع

فاستمالهم بالاقسام والمواعيد ففرّق جامعتهم وقتل منهم ثمانمئة في يوم واحد ولا تزال رؤوسهم الى الآن في كهف قرب نهر قاديشا

وتجارة طرابلس بيد الفرنسويين ولهم فيها قنصل وثلاثة بيوت تجارية ويصدرون منها الحرير والاسفنج ويأتونها بالمنسوجات والقرمز والسكر والبن

وبين اللاذقية وطرابلس ترى كثيرة كجبلة والمرقب وطرطوس وهناك جزيرة ارواد التي كانت مدينة عظيمة وجمهورية مستقلة مشهورة بصناعتها وتجارتها ولكنها الآن قفر بلقع

وايالة صيدا جنوبي ايالة طرابلس واقامة واليها الآن في عكاء وكانت قبل عهد ظاهر العمر تمتد من نهر الكلب الى جبل الكرمل وتشمل كل جبل الدروز ثم جاء الجزار فاضاف اليها بلاد صفد وطبرية وبعلبك وقيصرية وسكان قيصرية عرب اولاد صخر. ورأى الحصون التي اقامها ظاهر العمر في عكاء فنقل مركز الولاية اليها وصارت ايالتهُ تشمل كل البلاد من نهر الكلب الى قيصرية ومن البحر الى لبنان الشرقي وفيها سهل عكاء ومرج ابن عامر وسهل صور والحولة والبقاع وهي سهول خصيبة يجود فيها القمح والشعير والذرة والقطن والسمسم وتبلغ الغلة خمسة وعشرين ضعفاً من البذار. وفي قيصرية غابة كبيرة من شجر السنديان وينتج من صفد قطن ابيض يماثل قطن قبرص . وتبلغ الجبال المجاورة لصور مثل تبغ اللاذقية ويخرج منها نوع من كبش القرنفل يرسل كلهُ الى الاستانة ويستعمل في السراي السلطانية . وبلاد الدروز كثيرة الخمر والحرير وقد التزم الوالي البلاد كلها على مال يدفعهُ الى الدولة وهو ٧٥ كيساً (٣٩ الف جنيه) وينفق على ركب الحج منها . لكن دخلهُ كثير جداً يأخذ مكوساً على البضائع الداخلة الى البلاد اكثر من خمسين الف جنيه عدا الاموال الاميرية وجزية جبال الدروز وبلاد المشاولة وقبائل العرب . ولهُ في البلاد زراعة واسعة وهو شريك لاكثر التجار في متاجرهم . ويبلغ دخلهُ من هذه المصادر كلها نحو اربع مئة الف جنيه (عشرة ملايين فرنك) لكنهُ لا يتمتع بما يبقى لهُ من ذلك لان الدولة تصادرهُ من وقت الى آخر وتبتز منهُ الاموال التي جمعها

هذا بعض ما ذكرهُ فولنه عن احوال سورية المعاشية لما جاءها منذ نحو قرن وربع قرن اي حينما كانت في حضيض ذلها . ولقد جار عليها الدهر ولكنهُ عجز عن محو آثار عظمتها ومصادر ثروتها وهي الآن لا ينقصها الاَّ العدل والامن وان يجد ابناؤها على رفع شأنها فيجدوا من خيراتها الطبيعيَّة وموقعها الجغرافي ما يرقى بها وبهم الى فوق ما كانت عليهِ في عهد الفينيقيين واليونان والرومان